بقلم : محمد وفيق حسن

نحن في شارع ، والشارع واسع، مرصوف بالقطران ، والقطران لونه اسود ... ولكن في وسطه شريطين يلمعان لونهما فضي . الشريطان ممتدان ومتوازيان ، انهما قضيبا ترام وعليهما يسير الترام ، ولكن هذا الترام محصور بين هذين القضيبين ومقيد من أعلى بسلك رفيع يمده بالكهرباء .

الترام يسير ، السائق يدير مفتاح القيادة فيطوي وراءه ما قطعه من مسافات وفجأة يخرج عربة ، من شارع جانبي، يجرها حصان . العربة مسرعه والترام أسرع منها ، فيتقابلان وتكاد العربة ان تصدم بالترام ويحدث الضرر ، فيمسك السائق مفتاح القيادة بسرعة خاطفة فيقف الترام ويهتز الناس داخل الترام في جميع الاتجاهات ، الناس في هرج ومرج ... فرع .. خوف .. أسئلة ، اعصاب كلها ثائرة في داخل الترام عما حدث . ويطمئن الرجال السيدات بان الحادثة سليمة والحمد لله ، ولكن الحصان ما زال يحول ويصول فرحا بقوته وصولته كأنه يطامن من كبرياء الترام وسائق الترام .

ولكن السائق كان قد انفعل وخرج عن شعوره فان هذا الحصان ـ في رأيه ـ كان من الممكن ان يحرب بيته ويودي بحياة الناس الآخرين ، فنزل دون أن يعي محاولا في عصبية أن يضرب الحودي ، ولكن الحودي كما هو لا يتحرك ... والسائق منفعل . الحودي في حجم السائق مرتين ! الذي لن يجدي الشجار معه !! ... هذا ما يعرفه السائق جيدا . فقد ثار مرة فعل ذلك على عربجي وكان هذا الآخر بليد الشعور ، فأمسك به وضربه في رأسه محاولا بطحه فأبطح هو ، والعربجي كان ما يزال يضحك تذكر هذا جيدا ... فرجعت الكياسة الى عقله مرة أخرى ورجع الى الوراء قليلا ، كي يحتمي بالناس ، وأخذ يسب الحودي بكلمات خارجة والناس يؤيده فالحودي « محشوق » ، ولكن الحودي لا يرد ، بل يبتسم وينظر الى الرجل من فوق لتحت فهو في حجمه مرتين .

وازداد السائق في تقريعه للحودي فرد عليه الآخر ساخرا

ـ من أنت وترامك ؟ ... هذا عنتر ـ وعنتر هو اسم الحصان ـ عنتر المغوار ... ابو الفوارس ... هل تستطيع انت وترامك ان تسبقه ؟

فاحتقن وجه السائق مرة أخرى بهذا التحدي العلني ، بعد أن كان لسانه الرقيق قد ساعده في كسب الجولة ضد الحودي وبي اثبات رجولته وقدرته ولكنه حاول أن يسخر منه مرة أخرى قائلا

ـ يا أخي تسابق مع حدي أو ماعز أحسن لك .

تصحب ركاب الترام جميعا واشاروا الى الحوذي بأن يتوكل على الله وأستند درج السائق ، فقد أثبت ان دمه خفيف أيضا .

ولكن الحوذي لم يتوكل على الله ولم يمسك بالسائق ليفترسه مع ان هذا كان في استطاعته بكل سهولة ، ولكنه نظر الى الناس ثم الى السائق ، ووضع يده في سترته وأخرج منها ورقة عشرة جنيهات ـ وفي السر كانت هي كل ما يملك ـ ... ثم أشار بها نحو السائق والناس قائلا :

ـ ان كلامك لا يعجبني وشكلك أيضا ، هذه عشرة جنيهات لك مقابل لا شيء ان استطعت بترامك أن تسبق عمر ، وأطن يا حضرة السائق أن كلامي واضح ... فهل عندك الاستعداد لأن تكسب عشرة جنيهات مقابل لا شيء ؟ ... واحمر وجه السائق وأحس بالخجل بعد النصر ، وما زال الحوذي يوجه الصارم وتقاطيعه الصارمة يلوح للرجل بالعشرة جنيهات بسخرية ناظرا اليه كمن يقول : هل تستطيع ؟

وفكر السائق في هذا العرض وهذا التحدي ... ولكن الرهان من جانب واحد ... انه سيكسب عشرة جنيهات أو لا يخسر شيئا .

وحمس رجل خبيث من ركاب الدرجة الأولى في أذن السائق :

ـ راهنه ... هل من المعقول ان يسبق الحصان تراما . يبدو أن هذه الجنيهات تحيره . ارحنا منها ومنه يا نفس .

الحوذي ما زال يمسك العشرة جنيهات ويلوح بها للسائق والى الناس ثم يشد اللجام فمرار عنتر ، كمن يقول :

ـ هل يتجرأ أحد على أن يسبقني ؟

أما عنتر ... عنتر المرار .

ولكن الورقة ـ أقصد العشرة جنيهات ـ ما زالت تهتز أمام عيني السائق فمرحلها فيقول على العور :

ـ قبلت السباق أيها المغرور ... انك ستخسر بقودك !

ولكن السائق كان قد أعجب بهذا الغرض لأول وهلة ، لولا أنه كان خجلا لأن جنسيه الموقف كان يضطره أن يظهر هو الآخر ورقة مثلها حتى يكون الميزان متكافئا . الا أنه استنبط وظاهر أنه يريد أن يعطي بهذا السباق للحوذي درسا في الأدب . فلكل شيء حدود ولكن العشرة جنيهات ما زالت تتلألأ في عينيه .

هكذا بدأ السباق ، سباق حافل ... صمم فيه كلاهما على النصر .

وقف السائق على أهبة الاستعداد منتظرا ساعة الصفر ، وكان في عيني الحوذي شيء غير عادي ... بريق غريب فيه عزم وفيه ثقة ، ثقة في نفسه وفي عنتر ، فعنتر حتى يومنا هذا لا يدانيه أحد من الخيل في صولته ولا في قوته ... ومع أنه كتب عليه الآن أن يجر العربات ويحمل الأثقال ... ولكنه كان في يوم ما ، ذا شهرة لا حد لها . انه عنتر نفسه بلحمه ودمه لم يتغير وان تغير الزمن ، انه عنتر نفسه الذي هز العروش في ميادين سباق الخيل في يوم ما ، اذن ... له أن يقول هو وصاحبه :

ـ ويحك أيها الترام الحديدي ! ويحك أيها السائق !

وكان الترام عربتين ويحمل ثلاثمائة من الناس ، ركاب الدرجة الأولى ثم الثانية وحجرة السيدات . اما ركاب الدرجة الاولى فقد كانوا من اللحظة الأولى

مخصص لعبور الترام ، متمنين أن يكسب السائق الرهان ويحرز الجودى كل شىء . وقد أخذوا على عاتقهم مهمة تشجيع السائق . وركاب الدرجة الثانية وهم جمهرة الركاب فقد أيدوا عاطفيا الجودى دون أن يبدو فى رأيهم .

ـ رحل شهم وحدع وقلما يوجد مثله ـ

ولذلك أخذوا فى تهليلهم له وتشجيعهم اياه . وبالأخص بعد ما عرفوا أن هذا الحصان هو عنتر الذى هو بنفسه عروش سباق الخيل وان تغير الزمن ، أما العربة الثالثة وهى حجرة السيدات ... فلم يفعلن شيئا ... بل وضعن أيديهن على قلوبهن ، متمتمات من الرجال وحفة عقولهم . متمنيات لو استطعن أن يصلن بالسلامة !

ولكن أى سلامة فى موكب مثل هذا ؟

وفى هذا الوضع الحديد وقد ظهر لكل من الجودى والسائق مشجعون أصبح الموضوع أكثر من تحدى وأصبحت الحكاية مسألة كرامة ... كرامة تستحق الجلد والصبر والنجاح .

حانت ساعة الصفر ... وقد كتم كلاهما أنفاسه . السائق يدير المفتاح للمرة الثالث ... والترام ينطلق . الجودى يشد اللجام والحصان يعدو والموقف يتدنى والركاب أنفاسهم محبوسة وحواسهم يقظة ، ولكنهم جميعا فى أعيقهم التصميم وفى باطن عقولهم النصر

النصر هو الصوت ، هو صوت صهيل الفرس وجلجلة عجلات الترام ، النصر هو الأمل . المحطة الأولى تشهد توازن القوى ... فلم يستطع الحصان ولا الترام أن يحققا أى تقدم ... الواحد على الآخر . ولكن فى بداية المحطة الثانية استطاع الحصان أن يحقق فوزا طفيفا على الترام ، فهاج ركاب الدرجة الثانية وماجوا . وشجعوا صاحبهم الجودى وصفقوا له ... وكان عنتر قد فهم معنى الهتاف فانطلق بعدو . واعتبط السائق واحتفى وجهه وتهلل الحفل انطلق هو الآخر كمن يريد أن يسبق الزمن ولكن الجودى ما زال يبتسم وينظر ويبطر بعيدا ... بعيدا نحو الهدف . وفى الحال أشعل ركاب الدرجة الثانية سجائرهم وقد ارتاحت أعصابهم واشتعل ركاب الدرجة الأولى سجائرهم محاولين أن يهدئوا من أعصابهم

وحانت المحطة الثالثة وما زال الحصان يسرع ... وكان تقدمه ما زال طفيفا والموقف كما هو ... ومع بداية المحطة الثالثة استطاع أن يلحق الترام والحصان سرعان ما بدا الغضب على ركاب الدرجة الثانية وترقب ركاب الدرجة الأولى الموقف بحذر ... وابتسامة تهدو على شفاههم تحاول أن تجد لها طريقا ... وما زالت السيدات واضعات أيديهن على قلوبهن ... آه يا لخفة عقول الرجال ! ومع نهاية المحطة الثالثة كان السائق قد استطاع أن يحقق تقدما طفيفا جدا ... لم يتنبه الا ركاب الدرجة الأولى وحانت المحطة التالية لتشهد تقدم الترام على أبو العناتير . فصاح ركاب الدرجة الثانية مستبشرين واطمأن ركاب الدرجة الأولى وأخذوا يتبسمون ابتسامات متفرقة هنا وهناك . وكان كل منهم يهنىء صاحبه ... ثم قال أحدهم ـ

ـ أنا فى عجب من أمر هذا الجودى ... كيف يسبق الترام ؟

هل سيرجع للوراء ثانية ؟ تصوروا أنه راهن على عشرة جنيهات ؟

وأخذ ركاب الدرجة الأولى ينظرون الى جمهرة الركاب باشمئزاز وقد لاحظ الآخرون ذلك ، فتعاطفوا وأخذوا يقرعون ويسبون صاحبهم الجودى مكررين عبارات مختلفة ... لا بد وأن تفور ... انظر الى ركاب الدرجة الأولى ... يجب الا أن يشمتوا بنا ... يجب أن نفور

[illegible] اسرع [illegible] اجرى والله [illegible]
... لن يسبقك هذا الترام ـ لا لن يسبقك .

واحس الحودى بالخطر الذى ألم به والمسئولية التى القيت عليه ، فاعمل وحالت بخاطره افكار شتى ـ كيف يمكن أن يحدث هـذا ؟ كيف ؟ واخذ يخاطب عنتر ولكن الترام ما زال يسبق الترام يجرى وركاب الدرجة الاولى يبتسمون ، ثم يضحكون ... وها هو الترام يسبق بنصف محطة يا عنتر ويكهر رجه الحودى فى هذه اللحظات المتوالية وتتناوبه أحاسيس شتى ... فلا يحس شيء ... الجمهور ينادى والترام يتقدم والسوط بيده ، فامسك السوط وتدفع به الحصان لدقات صفيره محمومة مجنونة ، واخذ يلدع الحصان ويلدعه والجمهور يراقب ـ الجمهور يخاف الفشل ـ ، الجمهور فاغر فاه ... ولكن ركاب الدرجة الاولى ما زالوا يبتسمون ... يضحكون ، يشيرون على ركاب الدرجة الثانية فى سخرية وحقره السيدات ما زالت كما هى ... والله ممكن أيتها السيدات ... قمما زالت ابدانهن على قلوبهن .

المحطات تتوالى والترام يسبق الحصان بمحطة باكملها ... الجمهور يشور يصفر ، يسب ، يلعن ... ولكن ما الفائدة ؟ ... ، فالترام ما زال يسبق وركاب الدرجة الأولى يبتسمون ، يضحكون ، يشمتون بحائرهم ، ويبطر الحودى الى نفسه والسوط ما زال بيده وينظر الى الحصان ويحاول أن يلدعه ... ولكنه يرى ... يرى عنتر يدمع فيخاطبه .

ـ لقد صرتك ... لك الحق عنتر ، ثم يبطر الى عينى عنتر وعنتر ما زال يدمع ... ويدمع ... الاخر مع عنتر والترام يسرع ، والجمهور يثور ، يهتف يصيح ، الجمهور يريد النصر ، الجمهور يتمنى النصر ، ولكن الترام يسرع ... يسرع مع انه يسير على قضيبين)

وانت يا عنتر أتتأخر ؟

ويرمى الحودى السوط من يده وينظر الى عنتر ، وعنتر ما زال يدمع ... يسرع ويأخذ الحودى فى ارضاء عنتر فهو يلاطفه ويذكره بماضيه وبطولته .

أنت عنتر ... عنتر صاحب البطولات والكرامات ... لا بد وان تفوز ... انهزك ذلك الحديد ، الترام حديد يا عنتر ، وعنتر ينظر الى صاحبه وما زالت عيناه تدمع ويستمر صاحبه فى محاطبته ومصالحته .

ـ تصرف يا عنتر لو فرت ... سيكون هذا يومك ، صباح سيصبح أنت البطل ، سازوجك عملة ـ وعملة هذه لم تكن الا فرسة الحاج شلبية حارهم فى السكر ورميلهم فى الحرقة ـ اليوم يا عنتر سيكون لملة عرسك ، عرسك يا عنتر ، ساحضر لك أقماع السكر مثل زمان يا عنتر ، ستصبح أبو العمائر ، تعرف يا عنتر ... سيأتى اليوم جميع الخيول لترقص فى عرسك على أنغام الطبل البلدى وسترقص معها أنت لآخر يا عنتر الحودى يحاكى عنتر وعنتر يفهم كلام صاحبه ولكن الترام يهرع ، يسرع فى سرعة متطلبة وبدون احساس .

وفى وسط وتير الجمهور وصيحاته وهذا الاحساس الحديد الذى ملأ نفس عنتر وقلبه ، أخذ عنتر يعدو ، يجرى وصيحات الجمهور تتعالى تتعالى تتوالى ، الجمهور يهتف ، وركاب الدرجة الأولى ثائرون ... أصواتهم تعلو

يصحون . الكل متيقظ ، منتبه ، الناس كلها تتكلم ، أصوات تأتي من بعيد ومن قريب ، أصوات حقيقية وأصوات خيالية وبين أصوات يختلط مع صوت صهيل الجواد وصـــوت عجلات الترام وما في الشارع من ضوضاء . أصوات مختلطة من الدرجة الأولى والثانية ومن حجرة السيدات ... يسمع منها في بعض الأحيان

ـ آه لو انقطع التيار الكهربائي .

ـ سيتوقف السباق .

ـ لا لن ينتهي !

ـ ربما يوصلنا بالسلامة

ـ كيف يسبق حصان ترامًا ؟

ـ سيسبق .

ـ لا لن يسبق .

ـ أنني استطيع أن أشد السحة .

ـ كيف ؟ لا ! ســـيتوقف كل شيء هذه الطريقة الهمجية .

ـ لم تعمل كل هذا ؟ ... سيفوز الحصان حتمًا .

ـ أنا لا اسمح لسباق بأن يكون بمثل هذه الفوضى .

ـ أنني متأكد من كل شيء ... أمعك نقود ثقاب ؟

ـ ماذا ستعمل به بحق الشيطان ؟ احسبت أنت الآخر ؟

ـ سأشعل سيجارة ... ماذا جرى يا أخي ؟

ـ ماذا جرى لكم .

ـ آه لخفة عقول الرجال !

الحصان ما زال يعدو ، يعدو مثـــل الريح ، والصـــيحات تعلو ، تعلو من هنـــا وهنـــاك ، وعنتر يهب الأرض والمسافة بينه وبين الترام تقصر ، تقترب وعنتر يتقدم ، يجري ، لا يبالي وصاحبه لا يبالي ... ولكن السائق وجهه مختفٍ وجمهرة يشجعون سيارتهم ، فالسباق اصبح لهم ، لهم وحدهم ، ولكن السيدات مازلن واضعات أيديهن على قلوبهن

ويدفع الغضب والحقد الســـائق مرة أخرى ... فيندفع ويندفع ولكن الترام سرعته لها مدى . الترام مقيد من أسفل ومن أعلى . الترام يسير على قضيبين انها فرصتك يا عنتر ... انك غير مقيد انك احســـاس ، شعور ، نبض ... وسرعتك ليس لها مدى . أنت حر أنت حي ، كائن حي ، ولكن عنتر مازال متساويا مع الترام . خط النهـــاية يقترب وما زال الاثنان متســـاويين ويخاف ركاب الدرجة الثانية من الفشل ويرداد نبض ركاب الدرجة الأولى ولكن صيحات الجمهور تتعالى ، أصداؤهـــا تتعالى وربيها يتوالى ، يتوالى في أذني الحصان وصاحبه ، والحصان كائن حي شعور ، فيندفع الحصان في مســـتهربه اندفاعة لا حد لها ... يحقق بها الفوز ويستحق اللقب ... ولكن الســـيدات مازلن واضعات أيديهن على قلوبهن

وفي عمرة هـــذا الانتصار حر عنتر مغشيا عليه ، فساد المكان صمت طويل والتف حوله ركاب الترام جميعًا وقد شلوا عن الحركة ، ووجوههم العابسة المكفهرة الواجمة لا تعبر عن أدنى شيء وأفواههم فاغرة ، ولكن الجودي سرعان ما يقترب من صاحبه ويجلس بجواره يداعبه ويلاطفه ويكرر له الوعود ، وفي وسط هـــذا الوجوم يفتح عنتر عينيه فتحة ليست بالقوية وليست بالضعيفة ... فتخرج بعض الأفواه زفيرا قويا وتشهق بعض الأفواه شـــهيقا قويا ، وترتسم على الوجوه العابسة تعبيرات تختلف في احساساتها ... وما زال البطل يفتح عينيه ويغمضهما محـــاولا استرداد انفاسه وياســـه مرة أخرى والجودي صاحبه يرتم في سره

ـ حقا ... انه شعور ، احساس نبض ، حي ، كائن حي ! حي ! حي ! .